## ***إمارة بني رستم (160-296هـ)***

ظهرت إمارة **بني رستم** في المغرب الأوسط في حدود 160هـ بتيهرت التي أصبحت عاصمة لهذه الإمارة الإباضية؛ التي عمرت أكثر من 130 سنة. وقد سبق الإباضيين في هذا المجال من المعارضين؛ وكونوا كيانات سياسية لهم كل من عبد الرحمن الداخل بالأندلس سنة 138هـ، وبنو مدرار بسجلماسة بالمغرب الأقصى سنة 140هـ. إن لجوء الخوارج بقسميها الإباضي والصفري يعود إلى الاضطهاد والتنكيل الذي حل بهم؛ وأصابهم من طرف كل من الأمويين والعباسيين بالمشرق الإسلامي، الأمر الذي جعلهم يبحثون عن الأماكن النائية لزراعة بذور مذهبهم، وكان المغرب الإسلامي في مقدمة تلك الأماكن.

### ***أسباب انتشار المذهب الخارجي بالمغرب الإسلامي:***

* ***العامل الأول:*** كان بواسطة التجار الذين وفدوا من المشرق، وهم يعتنقون هذا المذهب؛ والفارين من الملاحقات التي سلطت عليهم من طرف العباسيين والأمويين كما سبق.

* ***العامل الثاني:*** كان لبعض عمال بني أمية مسؤولية مباشرة في تهيئة الظروف لانتشار الحركة الخارجية بالمغرب الإسلامي؛ واستفحالها بمرور الزمن، وذلك نتيجة القسوة والعنف التي سلكها بعض هؤلاء العمال مع البربر بصفة خاصة، ومن هنا وجد هذا المذهب تربة صالحة لنشره بين الساخطين على سياسة القسوة والعنف.

* ***العامل الثالث:*** يمكن اعتبار بعد منطقة المغرب عن مركز الخلافة دمشق أو بغداد عاملا مهما لكل حركات المعارضة؛ وفي مقدمتها أو من بينها الخوارج الإباضية لنشر مذهبهم وتعميقه بين فئة كثيرة من السكان. لقد ذكر **الدرجيني** في "**طبقات المشايخ**" (عاش في القرن 17م)؛ أن أول من جاء يدعو إلى المذهب الإباضي هو **سلمة بن سعيد** في مطلع القرن الثاني الهجري (ق.2هـ)، وتواصل نشر المذهب من بعده على أيدي أناس اختلفت عناصرهم؛ إما طلبا للتجارة أو طلبا للإقامة أو جنودا في الجيوش الإسلامية. وبدون شك كان للدعاة الدور الفعال في مجال نشر المذهب، فقد استطاع بعض الدعاة الأوائل أن يقنعوا بعض الأتباع بالمغرب الإسلامي بالتوجه إلى البصرة لتعميق اعمالهم في المذهب الإباضي والتفقه في أصوله، ومن أعضاء هذه البعثة العلمية الأشخاص الآتية أسماؤهم: **عاصم بن جميل السدراتي** من غرب جبل الأوراس، **أبو داود القبلي النفزاوي** من قبيلة نفزاوة جنوب تونس، **اسماعيل بن درار الغدامسي** من غدامس جنوب طرابلس، **عبد الرحمن بن رستم** من القيروان، كما انضم إلى هؤلاء الأربعة لما وصلوا البصرة شخص آخر هو **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري**، وتتلمذ هؤلاء الذين عرفوا فيما بعد بـ" حملة العلم الخمسة" على يد عالم إباضي اسمه: **أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة**؛ وهو أحد المنظمين الرئيسيين للمذهب الإباضي؛ وكان يقيم بالبصرة، وهو صاحب فكرة اختيار الدعاة. ظل هؤلاء وغيرهم يدرسون في سرية تامة على

يد أبي عبيدة المذكور آنفا خوفا من سطوة ولاة بني أمية؛ خاصة الذي كان واليا على العراق، ومكثوا هناك **خمس سنوات** للتكوين وعادوا للمغرب في حدود 140هـ.

عندما رجع هؤلاء الخمسة ازداد نفوذ المذهب الإباضي في المغرب اتساعا وتعميقا بين البربر بصفة خاصة، ولما شعر البربر بكثرة عددهم وانتشار مذهبهم؛ أخذوا يفكرون في إنشاء إمارتهم، وذلك بتأييد اباضية المشرق. ومن هنا اجتمع الأتباع ضواحي طرابلس وبايعوا **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري** بالإمارة وذلك عام 140هـ، واستطاع أن يداهم طرابلس على حين غفلة، وأرغم عاملها العباسي على مغادرتها؛ فاستولى عليها وأمن أهلها.

إن انتشاء أول إمارة إباضية كانت في طرابلس على يد **أبي الخطاب عبد الأعلى السمحي**، والذي سيكون له شأن في المستقبل؛ ولكن على يد **عبد الرحمن بن رستم**، وذلك بتيهرت في المغرب الأوسط وليس بالمغرب الأدنى. ما كاد أبو الخطاب يستقر في طرابلس حتى ثارت عليه قبيلة **ورفجومة** الصفرية التي انتهكت الحرمات والمقدسات الدينية عند جميع المسلمين، واستولت على القيروان؛ وحكمت بالسيف في رقاب الأهل من عرب وبربر بل وربط رجالها حتى دوابهم في المسجد، فاستنجد الناس بأبي الخطاب من وحشية هذه القبيلة فانجدهم وخلص القيروان من همجية ورفجومة الصفرية، وقتل أميرها **عبد الملك بن أبي الجعد اليغرني**، وعين على القيروان نائبا له هو عبد الرحمن بن رستم وذلك سنة 141هـ. وتأكدت تبعية إفريقيا لأبي الخطاب بعد هزيمته **لأبي الأحوص عمر بن الأحوص العجلي** في **"مغمداس"** سنة 142هـ، وهو الذي كلف من طرف محمد بن الأشعث عامل مصر؛ بإقرار الأمن والنظام في إفريقية. ولكن إمارة أبي الخطاب لم تدم طويلا إذ سرعان ما أدرك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور هذا الخطر الإباضي وساءه أن تنفصل غفريقية عن سلطانه السياسي والمذهبي، لذلك عهد إلى عامله على مصر أن يتولى بنفسه مهمة إرجاع الوضع في إفريفية إلى حالته الطبيعية، لذلك **محمد بن الأشعث الجزاعي** على رأس جيش قوامه نحو 50 ألف لإخماد فتنة الخوارج الإباضية فالتحمت به جيوش أبي الخطاب، فاتجه عبد الرحمن بن رستم لنجدته؛ لكنه عندما وصل **قابس** علم بهزيمة أميره **عبد الأعلى بن السمح** أمام الجيش العباسي؛ في معركة **تاورغا** من أرض **سرت** (على مسيرة 08 أيام من طرابلس) عام 144هـ؛ حيث قتل وأرسل رأسه إلى بغداد، وبمقتل أبي الخطاب تنتهي أكبر دولة أقامها الإباضية في إفريقية حتى هذا الوقت، فعاد عبد الرحمن بن رستم أدراجه إلى القيروان؛ فوجدها ثائرة عليه، وعندئذ قفل راجعا إلى المغرب الأوسط.

***قيام إمارة رستمية بتيهرت:***

التجأ **عبد الرحمن بن رستم** إلى المغرب الأوسط إلى قبيلة **لماية** لبربرية التي كانت لها علاقة حسنة معه من قبل، والتي اعتنقت المذب الإباضي منذ ظهوره وأفرادها مستقرين غير مستقرين.

في الفترة ما بين (141-160هـ) كان **ابن رستم** يعمـق المـذهب الإباضـي بيـن معتنقيه إلى أن اختط مدينة **تيهرت** سنة 160هـ، وبـذلك بويـع بالإمـارة وقـد وقـع الاختيار عليه نظرا لما عرف عنه من الكفاءة والتزام المذهب الإباضي، زيادة علـى ذلك فليس له قبيلة تحميه إذا ما غير وبدل وبالتالي تسهل إقالته وتنحيته. لما بويـع بن رستم بتيهرت في المغرب الأوسط اعـترف بـه إباضـية المشـرق، وأرسـلوا لـه إعانات مالية تتمثل حسب ما ذكر في ثلاثة أحمال ذهبا، ورغم أن المذهب الإباضي كانوا يدعوا إلى الشورى فيما يتعلق بالإمارة؛ فإن الحكم الرستمي أصبح وراثيا في عائلة **عبد الحمن بن رستم**، ابنه **عبد الوهاب** ثـم **أفلح بـن عبـد الوهـاب.** وهو ما أدى إلى ظهور المعارضة والتي عرف أصـحابها **بالنكـار**" لإنكـارهم أحقيـة عبد الوهاب في الحكم بعد أبيه"وزعيم هذه الفتنة اسمه **يزيـد بـن فنـدين** وهـذا بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ، حيث أنكر إمامة عبد الوهاب بـدعوى أن في المسلمين من هو أعلم منه، وحدث انقسـام مـذهبي "**وهابية** و**نكاريـة**"؛ ومنهم صاحب الحمار الذي ثار فيما بعد على الفاطميين وأوشك أن يقضي عليهـم، واستطاع أن يحاصر حتى عاصمتهم المهدية.

***تيهرت:***

معناها بالبربرية"**اللبؤة**" لأن المكان الذي بنيت فيه كان مـن قبـل عرينـا للبـؤة. ولعلها سميت بهـذا الاسـم تفـاؤلا بقوتهـا فـي المسـتقبل ضـد الأعـداء، وقـد بنيـت بالقرب من آثار رومانية، وورد في بعض المصادر أن مكان بناءها كانت بـه شـعراء كثيرة الأشجار تأوي إليها الوحوش؛ فأرسل الإباضية مناديا ينادي الوحوش بمغـادرة المكان فاستجابت لندائهم، ولا شك أن هذا لا يخلو من المبالغة وذلك على غرار ما ورد في ذكر بناء مدينة القيروان. بنيت تيهـرت علـى غـرار المـدن المعاصـرة لهـا، حيـث بنيـت فيهـا مختلـف المرافـق الضـرورية والمسـجد الجـامع ومـا إلـى ذلـك، وأحيطت بسور. قال **البكري** بشأنها:" **ومدينة تيهرت لها أربعة أبواب، بـاب الصفا مفتوح من جهة الشرق، وبـاب المنـازل الموجـود فـي النصـف الجنوبي، وباب الأ،دلس الواقع على الجدار الشمالي، وباب المطـاحن الموجود على جهة الغرب، ولها قصبة على السوق تسمى المعصوم**" . (البكري، ص 66-67).

لقد روعي في بنا هذه المدينة عدة أمور:

* من حيث موقعها الجغرافي: توجد وسط المغرب الأوسط، فالمسافة بينهـا وبيـن القيروان وبين المغرب الأقصى تكاد تكون متساوية

* تقع في مكان وسط بين الساحل والصحراء، فهي بعيدة عن البحر من جهة ومن ثم فهي في مأمن من غـارات الـبيزنطيين؛ ومـن جهـة أخـرى سـهولة اتصـالها مـع القلاع الموجودة في الصحراء.

* خصوبة المنطقة التي بنيت فيها، إذ تمتاز خاصة بكثرة إنتاج الحبوب.

* توفر الكلأ والعشب بالمنطقة، والذي يجلب إليها أهل البدو بمواشيهم خاصة في الصيف.

* وجودها في وسط تجمع الإباضيين.

تداول على الإمارة الإباضية في تيهرت ثمانية أمراء في مقدمتهم المؤسس الأول **عبد الرحمن بن رستم(160-171هـ)**، ثم خلفه ابنه **عبد الوهاب بن عبد الرحمن فواصل مسيرة أبيه إلى حين وفاته سنة 190هـ، ثم تعاقب على حكمها الأئمة الآتية أسماؤهم: أفلح بن عبد الوهاب، أبو بكر بن أفلح، أبو اليقظان بن أفلح، أبو حاتم بن أبي اليقظان، يعقوب بن أفلح**، وآخرهم **اليقظان بن أبي اليقظان** الذي قضى عليه داعي الإسماعيلية **أبو عبد الله الشيعي** سنة 296هـ، وتشتت الإباضية وتفرقوا في كل مكان، فذهب جانب كبير منهم إلى الجهات الصحراوية وأقاموا حول بئر الصفا وأسسوا بلدة صدراتة جنوب مدينة ورقلة. ، وفي القرن العاشر الميلادي هاجر الإباضيون مدينة صدراتة بسبب هجوم أهل ورجلان عليهم وطردهم من هناك، إلى جانب زحف النورمان وانتشار الملاريا وقلة المياه، وتوجهوا إلى منطقة وادي ميزاب ببلاد الشبكة، وأسسوا هناك مدنهم السبعة: العطف، بونوره، بنو يزقن، مليكة، غرداية، ثم بريان، والقرارة. وبالتالي زالت الإمارة الرستمية كما زالت الإمارات المعاصرة كلها.

***الجهد الحضاري لبني رستم:***

ترك الرستميون بصمات حضارية ذات قيمة، وأهمية بالنسبة إلى عصرهم، تمظهرت في جوانب مختلفة:

كان نظام الحكم في هذه الإمارة شوريا يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة، وسعوا جهدهم لإصلاح الأوضاع، والاهتمام بشؤون الرعية وكرسوا حياتهم في العمران والنشاط الاقتصادي فراجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية، وغدت تيهرت التي جددوا بناءها ووسعوا عمرانها-ملتقى القوافل التجارية ووفود طلاب العلم-، فانتشرت الثقافة حتى أصبحت دولتهم مركز إشعاع، حيث كان معظم أئمة الدولة الرستمية علماء، وأدباء، وشعراء، يهتمون بالعلم، وقضايا الفكر والثقافة، ويجلون العلماء والفقهاء، ويتخذون منهم مشتشاري، ويسندون إليهم مناصب الوزراء والقضاة وحكام الأقاليم، ويغقدون معهم المناظرات والمحاورات، ويهتمون بجمع الكتب ونسخها، فالإمام أفلح مدح العلم ورجاله، والإمام عبد الوهاب بن أفلح اهتم بجمع الكتب ونسخها واقتنائها؛ فأرسل إلى إباضي البصرة بالعراق ألف دينار ليشتروا له الكتب. أنجبت الدولة الرستمية الكثير من علماء الدين والفكر أمثال الشاعر والفقيه بكر بن حماد التاهرتي، والأديب الحسن بن علي بن طريف التاهرتي، والفقيه أبو يعقوب يوسف إبراهيم الورجلاني، وأبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي وغيرهم، وامتد نفوذها من مدينة الزاب حتى تلمسان وضمت إليها مجموعة من المدن: تنس، ومليانة، والشلف ووهران، ومستغانم ومعسكر، وجزء من تلمسان، وربطتها بدول القيروان والمشرق والأندلس وخصوصا افريقيا

السوداء علاقات تجارية هامة، وكانت مدينة تيهرت مـزودة بمكتبـة كـبيرة يقصـدها طلاب العلم ويجتمعون داخلها في حلقات حـول العلمـاء، وكـانت المدينـة مفتوحـة على العلماء مـن غيـر الإباضـيين يأتونهـا مـن مختلـف الأقطـار الإسـلامية. وعلمـاء تيهرت وفقهاؤها منهم من كان إباضي المذهب ومنهم مـن كـان علـى غيـره، وهـذا مما يثبت ويؤكد سماحة الإباضيين وعدم تعصبهم.

***أ- الجانب العمراني:***

في مقدمة انجازاتهم في هذا المضمار بناء تيهرت التي كانت عاصمة الإمـارة، والتي أصبحت فيما بعد مركزا مهما في المجال العلمي والاقتصـادي، حيـث مثلـت همزة وصل في المجال التجاري بين المغرب الأوسط وإفريقيا السوداء، كما كانت القوافل تنطلق منها وتفد عليها من مختلف الاتجاهات.

***ب- الجانب العلمي:***

اهتـم علمـاء تيهـرت والبلاد التابعـة لهـا بـالعلوم الدينيـة والمذهبيـة، والقضـايا الأخلاقية، وعلم الإلهيات وذلك نظرا للظروف الصعبة التي أحاطت بفـرق الخـوارج عامة ومنها الإباضـية فـي القـرون الهجريـة الثلاثـة: الثـاني والثـالث، والرابـع الـتي تصارعت فيها الفـرق المذهبيـة الإسـلامية، لـذلك تجنـد علـوم الإباضـية للـرد علـى الخصوم وشرح نظرياتهم، وتوضيح مواقفهم، وفلسفات شيوخهم وأئمتهم.

* ***المؤسسات التعليمية:*** وتتمثل في الكتـاب والمسـجد، حيـث اقتصـر التعليـم على تحفيظ القرآن الكريـم وتـدريس العلـوم الأخـرى مـن تفسـير وحـديث وفقـه، ومختلف المواد العلمية الأخرى من أدبية ولغوية، وكانت العلوم على نـوعين نقليـة وعقلية:

- ***العلوم النقلية:*** في مقدمتها ما يتعلق بالقرآن الكريم من تفسير وتجويد خاصة أنه المصدر الأول للتشريع، فقد احتاج الناس إلى فهمه للاسـتفادة منـه خاصـة وأن البربر في حاجة ماسة إلى ذلك أكثر من غيرهم كي يحملوا من مضمونه ما يتعلـق بأمور دينهم الدينية والدنيوية(صلاة، زكاة، صـيام، حـج)، وفـي كـل ذلـك مـا يتعلـق بالعبادات من بيوع وإجارة وكراء...إلخ. إن تفسير بعض الآيات كان يؤدي أحيانا إلى مناظرات فقهية بين العلماء، حيث يحتد النقاش بشأنها. وقد ظهرت مصـنفات فـي التفسير إذ يذكر بعض الإباضية أن **لعبد الرحمن بن رستم** مصـنفا فـي تفسـير القرآن الكريم؛ وكان متداولا بين الناس. وذكر من جهة أخرى أن هناك مصنفا ثانيـا في التفسير لشخص اسمه" **هود بن محكم الهـواري**" مـن قبيلـة هـوارة. وإذا كانت هناك آثار علمية معتبرة فيما يتعلـق بتفسـير القـرآن فليـس هنـاك مـا يـذكر بشأن علوم الحديث، ولعل ذلك راجع إلى قلة التخصص في هذا المجال الذي ظهر فيه فطاحل في المشرق.

- ***الفقه:*** عرفه ابن خلدون بقوله:"**هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب، والحضر والندب، والكراهة والإباحة، وهي مالقـاة من الكتاب والسـنة ومـا نـص بـه الشـرع لمعرفتهـا مـن الأدلـة، فـإذا**

**استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه". ابن خلدون، المقدمة ص 798**. وبما أن الفقه يتمثل في معرفة الحلال والحرام بصفة عامة فإن الإباضيين اهتموا بهذا العنصر اهتماما بالغا حيث برز كثير منهم فيما يتعلق باستنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية، خاصة وأنهم "االفقهاء" وجدوا منافسة من أتباع المذهب المالكي والمذهب الحنفي، حيث كان من المفروض عليهم أن يثبتوا وجودهم في هذا المجال، وقد برز عدة فقهاء إباضيين في مقدمتهم الأئمة الرستميون الذين كانوا فقهاء بالدرجة الأولى؛ وذكر أن لهم مصنفات، حيث لا يتولى أحدهم الإمامة إلا إذا كان بارزا متطلعا متبرعا في الفقه الإباضي، ومن أبرز هؤلاء الفقهاء: فقيه اسمه أبوعبيدة الأعرج الذي كان مشهورا بالفقه وعلم الكلام والتوثيق، حيث يذكر ابن صغير أن كل الإباضية يعترفون له بالفضل والورع، فإذا ما اختلفوا في قضية ما استفتوه فيها. وفقيه آخر اسمه عبد العزيز بن الإوز الذي كان من أشهر الفقهاء أيضا، وقد رحل إلى المشرق للتعمق في فقه الإباضية...وغيرهم.

ب- ***العلوم العقلية:*** إلى جانب العلوم النقلية هناك العلوم العقلية أيضا، وتتمثل في علم الكلام واللغة العربية بمختلف فروعها من نحو وصرف، والأدب بقسميه الشعر والنثر والتاريخ بمختلف فروعه من تراجم وسير. وكذلك العلوم الأخرى من حساب وهندسة وفلك وفلسفة وغيرها. كثر اهتمام علماء المذهب الإباضي في تيهرت وغيرها بعلم الكلام والمنطق، والجدل والفلسفة، والحكمة والقضايا الأخلاقية. فبعثوا في الفكر الإسلامي حيوية منقطعة النظير ساعدت العلماء والمفكرين على الإبداع الفكري، والتنظير المذهبي في القضايا الفقهية المذهبية، ونظم الحكم، والمنطق الجدلي. إن مكانة تيهرت الحضارية كعاصمة للدولة الرستمية، لا تقل عن غيرها من العواصم الكبرى المغربية والمشرقية والأندلسية، رغم قصر عمرها.

فيما يتعلق **بعلاقة الإمارة الرستمية بجيرانها في المغرب الإسلامي** اختلفت بين إمارة وأخرى فعلاقاتها بالإمارة المدرارية كانت في الغالب علاقات ود وتعاون على اعتبار أن كلا منهما تشرب من نبع واحد وهو المذهب الخارجي. أما علاقتها ببني الأغلب وهم على المذهب السني فلم تكن في غالب الأوقات حسنة، نظرا لكون بنو الأغلب يمثلون الخلافة العباسية(خلافة غير شرعية في نظر الإباضيين). ونفس العلاقة كانت مع الأدارسة (شيعة علوية".

وأخيرا سقطت الإمارة الرستمية على يد الداعية الإسماعيلي **أبو عبد الله الشيعي**، وكان آخر أئمتها – كما تقدم- هو" **اليقظان بن أبي اليقظان**" الذي قتله في مجموعة من أهل بيته، ومن ثم شرد الإباضيون وكونوا لهم ملجأ في **صدراتة**.